الطيرُ الأسودَ الصّغير

قصة بقلم محمد كامل عارف

لم تورق الاشجار بعد ، ولكن خضرة خفيفة تشع من صف الاشجار الطويل في الاسفل . كان العراقي يتطلع من نافذة غرفته ويفكر بانها ستورق كلها في أقل من اسبوعين . لقد كان الشيء نفسه يحدث في اية مدينة عاش فيها في اوروبا . وكان هو يدهش دائما للسرعة التي تخضر بها الاشجار . ما ان يرفع المرء رأسه ، حتى يجد الاشجار قد ازدحمت بالبراعم ، وبدأت تورق .. ويحل فصل جديد اخر .. وتتوالى الفصول : وارشو .. فينا .. براغ .. برلين : الاشجار تبرعم وتورق وتيبس ، لتعود تورق من جديد .

وتذكر العراقي ، كيف انه فوجيء مرة في فينا ، وهو يغادر الحانة مع الفجر ، بالاشجار مخضرة على طول الرصيف . لقد فكر وقتها بانه سيتحطم قريبا . وظن ان ذلك سيحدث ، كما ينقطع حبل متوتر مرة واحدة . كان يتطلع الى الاشجار ويردد بلذة : ساتحطم .. سانحطم . ولكنه يعرف الاونة انه لن يقع له هذا الحدث الفذ . لن يسمع صوت حبل ، ينقطع مرة واحدة . وانما سيتهرأ الحبل ، سيتفكك بين اونة واخرى .. تك .. تك .. تك .. تك : والاشجار تبرعم وتورق وتيبس ، لتعود تورق من جديد .

وانتبه الى ان الفتاة اخذت تدندن بالغناء : اوه كارول .. اوه كارول .. انني حمقاء جدا .. قل ان كنت تحبني .. كارول .. اوه كارول .

واخذ السرير يطقطق . وسالته الفتاة : ـ اهي سخيفة ؟

لم يجبها . كان قد رأى طيرا اسود صغيرا يرنق بجناحيه فوق سطح البيت المقابل . طقطق السرير مرة اخرى ، واقتربت منه . لفت ذراعها حول كتفه ، وشم رائحة جسدها الحارة .. بف ! لم لا تذهب وتغتسل ؟ واخذ الطير الاسود الصغير يرفرف بجناحيه محوما حول مدخنة البيت المقابل . قالت الفتاة : ـ ستغني انت ؟

ـ ماذا ؟!

ـ ستغني أنت اغنية عن بغداد ؟

قال العراقي : لا اعرف .

كان الطير الاسود قد غادر المدخنة . ثم عاد مرة اخرى يحوم حولها . وتجاوزها بعيدا ، مرفرفا بجناحيه ، وهو يرتفع وينخفض في طيرانه . فكر العراقي ، بأن الطير الاسود الصغير لا يقصد المدخنة بالذات .

قالت الفتاة : ـ اعطني سيجارة اذن .

ـ هناك على المنضدة .

واختفى الطير الاسود . انخفض وراء السطوح القرميدية ذات المداخن واختفى . قال العراقي لنفسه : انه لا يقصد مكانا معينا . الطير الاسود الصغير لا يقصد اي مكان . انه يطير فوق مداخن المدن ، فوق سطوحها القرميدية ، يرفرف بجناحيه ، وحيدا . ولكنه لا يقصد مكانا بالذات .

وفكر العراقي ، انه ربما يكون نفس الطير الاسود الصغير الذي وجده طافيا على الماء عند شاطيء بحر البلطيق في بولندا . كان مبلل الريش ، متعبا . وكان جلده الاحمر محترقا بماء البحر والشمس . وضعه داخل قميصه ، واخذه معه الى المخيم . كان الطير الاسود لا ينفك يطل برأسه الصغير الاقرع من فتحة قميصه ، ويحدق بالفتيات البولنديات المستلقيات على الرمل . ولم يعرف احد نوع هذا الطير . ضحكت البولنديات عليه ، وبقي الطير يتلفت برأسه ويطرف بعينيه المستديرتين ، محدقا بهن . قال لهم العراقي ، انه نوع من الدجاج البري . ووضعه فوق فراشه في المخيم ، وقدم له الخبز والماء . ولكن الطير لم يشا ان يأكل ، ظل يتلفت برأسه ويحدق بالفتيات الملتفات حوله . قال العراقي للطير : حسنا ! اذا كنت تخجل ان تتناول طعامك امامنا فسنتركك لوحدك . وعندما عاد الى المخيم في المساء لم يكن الطير الاسود الصغير هناك . كان قد ترك فضلاته على السرير وغادر المكان : ان الطيور السوداء الصغيرة لا تكف عن الطيران ، وهي وحيدة ومسرورة وخبيثة .

واخذت الفتاة الان تزعق وراء ظهره . التفت اليها : ـ ماذا ؟

ـ انني اسالك ، هل هذه الصورة على الحائط هي الثور المجنح ؟

ـ اجل . انه الثور المجنح .

وعاد يحدق عبر النافذة . قالت الفتاة :

ـ في بلاد ما بين النهرين ولدت اولى الحضارات في العالم .

فكر العراقي ، بانها لا بد قد قرأت ذلك في المدرسة .

قالت الفتاة :

ـ وفي بغداد انشئت في القرن الحادي عشر اولى الجامعات .

سالها : اين قرأت ذلك ؟

اقتربت منه ، واتكأت على النافذة بجانبه . انتبه الى انها قد ارتدت ثيابها وغيرت لون الاحمر على شفتيها .

سأل مرة اخرى : ـ اين قرأت ذلك ؟

قالت : ـ في احد الكتب .

قال : ها .. اجل .

والتفت برأسه نحو النافذة . سالته الفتاة : اين تقع بغداد الان ؟

ـ في العراق . انها تقع دائما في العراق .

مالت بجسدها عليه وقالت : لا . اعني في أي اتجاه تقع ؟

قال : هه ! لا أدري .

ـ هناك ؟

ـ لا اعرف .

قالت : ربما هناك . باتجاه البيوت الخشبية ؟

نفض ذراعها عنه وقال : لا اعرف . لا اعرف .

ـ كيف لا تعرف ؟!

ـ لا اعرف . انها تقع في جهة ما على أية حال .

اخذت يدا الفتاة تهتزان فوق حافة النافذة . وسمع صوت ضحكها المكتوم . ابتعدت عن النافذة ، والتفت وراء ظهره واخذت تضحك بصوت عال . والصقت وجهها بظهره ، وهي تهتز من الضحك .

التفت اليها : ـ لماذا تضحكين ؟!

واخذت تضرب الارض بكعب حذائها وتضحك : أوه .. أوه . انه لا يعرف ! لا يعرف أين تقع بغداد ! هيء .. هيء .. هيء .. هيء .

وارتمت على السرير وساقاها تهتزان فوق الارض .

قال لها : ـ حسنا ! انا لا اعرف . ثم ماذا ؟

ـ أوه .. أوه .. أوه .. أوه .

ووضعت كفها على انفها ، وهي تهتز فوق السرير ، وقدماها تتخبطان على الارض .

اقترب من السرير ، وانحنى فوقها . قال لها :

ـ اسمعي . انا لا اعرف . أنا لا اعرف أي شيء . هل تسمعينني ؟ ها ؟ أنا لا اعرف اي شيء مطلقا . مطلقا . هل يضحكك هذا ! هيا .

سكنت قدماها فوق الارض . وكفت عن الضحك . لوحت بكفها امام وجهه ، وقامت عن السرير . اتجهت نحو المنضدة ، حركت كرسيا بجانبها وقعدت . وتناولت من فوق المنضدة تفاحة ، قرضتها بفمها ، وقالت : لنذهب الى المقهى اذن .

لم يجب العراقي . عاد الى النافذة ، اتكأ على حافتها واخذ يتطلع عبر الزجاج ويسمع صوت الفتاة وهي تقرض التفاحة بأسنانها .

لينينغراد — محمد كامل عارف